أطر فهم الجمال الفني و قياسه

عاطفة المسكرية

انطلقَ الإنسانُ نحو مُمارسة الفن منذ قرون عديدة. يعود هذا اللفظ اللاتيني الأصل -الفن- إلى كل ما يتعلق بمختلف الأنشطة والمهارات والمهام اليدوية تحديدا، والخبرات المكتسبة في القرن الحادي عشر؛ حيث يُمثل الفنُ بشكل ما حركة الأفكار التي تعكس التغييرات الطبيعية، الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية في تلك الفترة.

ويختلفُ تعريف الفن وفقاً للمعنى السائد له في كل عصر؛ إذ إنَّه بدأ في بيئة حرة دون قيود، ليستقل بعدها كدراسة في القرن الثامن عشر، رغم وجوده منذ القدم.. ويشيرُ أحدُ المؤلفين -يُدعى مارك جيمينز- في مقاله حول «ظهور الاستقلال الذاتي للفنون الجميلة في الغرب» والمنشور بمجلة «التسامح»، إلى الصخب الناتج عن استقلال الفن كدراسة وجانب مضاف إلى العلم. أيضا يُعرِّف هوبرت ريد الفن على أنه إبداع الأشكال والأنماط الجديدة. وكانتْ هناك في السابق أفكار ترفض فكرة الإبداع هذه؛ كونها تخلق شيئا جديدا، أو تعكس ما هو موجود وفق ما تراه العين الداخلية للإنسان. فكون الإبداع الفني أقرب للخلق من ناحية تكوينه لأنماط جديدة لشيء ما، جعل منه فكرة مرفوضة لأن الخلق من امتيازات الخالق. هذا الربط بين الفن والقدرة الإلهية تلاشى مع تقدُّم السنين. مما يدلُّ على ذلك الفترة التي عاش بها الفنان الإيطالي ليوناردو دافنتشي الذي لم يكن رسَّاماً فحسب، بل كان مهندساً، وجيولوجياً، وموسيقياً، ونحاتاً، ومعماريا، وعالما في نفس الوقت.

كلُّ ذلك يعكس عبقريته التي تستدعي التفكر والتراجع عن الفكرة التي كانت سائدة حول الفن وعلاقته بالخلق؛ إذ إنَّ العبقرية من الله، والإبداع إذا اتصل بها يظل من القدرات الفردية التي لا يتميز بها كل فرد؛ فلذلك اعتبر الفنان استثنائيًا، حيث أصبح يطلب من الفنانين أن يوقعوا على أعمالهم. فكأنما التوقيع يعكس وعي الفنان بأن له عبقريته التي تميزه عن الآخرين، وأنه لا يخضع لقوانين غير التي تمليها عليه نفسه. هذا التحوُّل في الفكر السائد حول الفنون لم يحدث بشكل مباشر، وكان التغيير بطيئا نسبيا؛ إذ إنَّه كان يرسخ تحت ضغط الدين من جهة، والسلطة من ناحية أخرى. لكن التحوُّل خلق صورة منافية تماماً لما كانت عليه في السابق لدرجةٍ أصبح فيها الفنان يشترط في تحديده لأسعار أعماله الفنية وفقا لسمعته كفنان في ذلك العصر، وليس على متطلبات العمل الفني من جهد وأدوات. ولا يهم أن يكون العمل وفقا للطلب؛ حيث يتم تقبل أي عمل مادام أنه يحمل توقيع فنان ذاع صيته في زمن ما. وبعد تحقق هذه الاستقلالية للفن بعيدا عن الحكم الديني والأخلاقي وبعيدا عن سيطرة السلطة، دخل الفن مرحلة من التقييد تحكمها بعض المعايير الثابتة أو المحدودة نوعا ما، تحدد جمالية العمل الفني من عدمه. إلا أنَّ هذه المعايير قد تكون غير واضحة تماما، أو لا ترضي كل الفئات والأذواق؛ حيث يضع البعض هذه الشروط الجمالية بناء على ما يتركه العمل من أثر في دواخلهم كالانسجام والتناغم. حتى إنَّ بعض الفلاسفة اختلفوا بأنفسهم في تحديد ما إذا كانت هذه المعايير صالحة للتطبيق على كافة الأعمال الفنية لتحديد مستواها. حقيقة الأمر أنَّ القدامى منهم تبعوا نهجا أقرب للثبات لتقييم الأعمال، بينما الذين أتوا بعدهم كانوا أكثر ميلا لربط الظروف الزمانية والمكانية للفنان بعمله الفني؛ وذلك يعني بعدهم النسبي عن المعايير الثابتة. ومن هذه النقطة بالتحديد، ظهرتْ بعض الفنون الجديدة التي تُصنَّف على أنها حرة أي غير ملتزمة بمعايير التقييم الثابتة كالشعر الحر مثلا. لكن برأيي أنَّ الفن كونه يعكس ما يشير إلى ذات الإنسان الداخلية، فلا بد أن توضع له حدود معينة تقيه العشوائية الكامنة بداخله أحيانا، إلا أنَّه يجب أنْ لا يؤثر ذلك على المخرجات الفنية. أي يُحكم الفنان في طريقة طرحه للعمل الفني؛ حيث يكون ملتزما بنقاط معينة تحدد ماهية الأفكار التي يود أن تعكسها اللوحة أو العمل الفني بشكل عام.

وردًا على التساؤلات التي طُرحت في فترات معينة حول أهمية وجود مثل هذه المعايير التي تعدُّ نوعا من التقييد على الفنون التي خُلقت حرة من الأساس، أنَّها من جانب آخر تعمل على أن لا تدرج كل الأعمال بصفتها أعمالا فنية، إلا اذا توافرت فيها شروط معينة. كما أنَّ هناك مبحثا أساسيا يُسمَّى «فلسفة الفن» يقوم بهذا الدور تحديدا، وتم استخدامه من قبل العديد من الفلاسفة مثل أفلاطون وأرسطو لتقييم مختلف الأعمال الفنية. لا بد من الإشارة هنا إلى أنَّ الفن لا يقتصر على بعض الأمور المحددة كالرسم مثلا، إنما يتجاوز ذلك كافة الفنون وحتى الشعبية منها؛ إذ مثل ما ذكرت سابقا أنها تعكس جانبا من هوية الفنان أو تجارب حياته التي مر بها، والتي شكلت نظرته الداخلية للأمور، واستطاع التميُّز عن الآخرين بذلك من خلال قدرته على التعبير عن نظرته الذاتية على هيئة عمل فني كالرسم مثلا، ويصنف على أنه عمل فني مادي. وهناك نوع قد يندرج ضمن قائمة الأعمال الفنية غير المادية كالمعزوفات الموسيقية.

وعلى كلٍّ، يستمر الجدل حتى العصور الحالية في تحديد جمالية هذه الفنون وموقع الذوق الشخصي للفرد كعنصر محدد لذلك، خاصة وأنَّ الشخص قد لا يعلم بالاشتراطات الجمالية لأي عمل فني إن لم يكن متخصصا في ذلك. إذن؛ هذا يعني أن يقتصر التقييم على المتخصصين؛ مما يعني حرمان باقي الأفراد من التمتع بهذه الأعمال والانسجام معها نتيجة تأملها كلٌّ حسب ذوقه. وهذا بالذات فيه شيء من التضييق للحريات الفردية ومحاولة السير في نطاق جماعي واحد دون مراعاة للتنوع والاختلاف بين الأفراد.

ختاما.. نستطيع القول إنَّ مرحلة استقلال الفن من الحكم الديني والأخلاقي وقبل انخراطه بالمعايير الثابتة كانت تعد أفضل مرحلة مر بها الفن كانعكاس داخلي للذات؛ إذْ لا يليق بالفن إلا أن يُمارس في بيئة حرة مثلما بدأ.

attifa.nasser@gmail.com